

الالتزام العلمي عند ابن خلدون

الاستاذ عبد الكريم غلاب

يسعد اتحاد كتاب المغرب العربي ان يساهم في هذا المهرجان العلمي الذي يقام اليوم تخليدا لعالم فيلسوف مؤرخ اديب ينتسب للمغرب العربي ويدين بعلمه وفلسفته وآرائه لهذا الطرف الاغر من بلاد العروبة والاسلام وليس اجدر بالاحتفال بابن خلدون من اتحاد كتاب المغرب العربي ، وليس هناك واجب على اتحاد الكتاب آكد من الاحتفال بابن خلدون ، لانه الرجل الذي حقق فكرة الاتحاد منذ نحو من ستة قرون فهو الكاتب المؤرخ الفيلسوف الذي جمع فيما كتب وأرخ اقطار المغرب العربي ، والذي عاش حياته العلمية والسياسية في المغرب العربي ، متنقلا باحثا مستقصيا اخبار هذه البلاد وتاريخها ، مستخرجا لنتائج الرائعة التي سجلها في مقدمته والتي ادهشت عالم العلم والفلسفة والتاريخ .

ابن خلدون بنى مجدا علميا لهذه البلاد، بل بنى مجد العرب والمسلمين ، وقضى على كل فكرة يمكن ان تتهم العرب والمسلمين بالعقم العقلي او القصور الفكري ، ولكن الاحتفال بابن خلدون لا يجب ان يقتصر على هذه المحاضرات التي تلقى فتلقى اضواء على جوانب من عبقرية هذا العالم الانساني وانما الاحتفال به لا يمكن ان يتم الا باخراج كتبه - وخاصة الديوان والمقدمة - اخراجا علميا ييسر القراءة والاستفادة لكل طلاب المعرفة في شرق الدنيا وغربها .

هذا واجب يتحمله العرب والمسلمون ، ويتحمله غير العرب والمسلمين

* هذه الكلمة القاها الاستاذ عبد الكريم غلاب ، نائب رئيس اتحاد كتاب المغرب العربي ، كمساهمة من تلك الهيئة في مهرجان ابن خلدون .

ومن هذه الاسس ان التاريخ ليس اخبار الرجال او القواد او الملوك فحسب، ولكنه تاريخ الامم . فهي انتى تصنع هذا التاريخ ، وهي الجديرة بان يسجل المؤرخ ما صنعت ، ولهذا يعنى بنشأة الاجيال كما يعنى بنشأة الدول . وينظر الى اسباب عزة الامم كما ينظر الى اسباب تدهورها ، ويبحث فى اسباب ذلتها وانتكاس رايثها ، وكثرة سكانها وقلة عددها ، ويبحث فى العلوم كما يبحث فى الصناعات ووسائل العيش ، ويبحث فى اسباب الحضارة ومظاهرها كما يبحث فى اسباب البداوة ، ويؤرخ الماضى كما يبحث الحاضر ويتوقع المستقبل . فكان التاريخ عنده مرآة تتجلى فيها الامة بكامل مقوماتها وحدودها ومميزاتها ومحاسنها ومبازلها .

ومن هذه الاسس دراسة التاريخ ككل، اى كحياة انسانية شارك فيها البشر واستفاد بعضهم من بعض وتأثرت امة باخرى . ولهذا بذل جهده فى وضع مقارنة علمية بين الامم رغم انه وضع كتابه لتاريخ العرب والبربر، ولكنه بذل جهده فى التعرف على حياة امم ممن مكنته وسائل المعرفة اذ ذاك من التعرف اليها ليقارن بين حياة هذه وتلك ، وليستخلص النتائج الحقيقية من العمران البشرى لا من مجتمع ضيق .

واعتقد أن هذا الافق المتسع فى فهم التاريخ هو الذى مكن له من اكتشاف علم الاجتماع او فلسفة التاريخ او علم العمران كما يسميه . وهذه النظرة الواسعة الافق دفعته الى ان يعلنها ثورة شعواء على المؤرخين الذين عرفهم علم التاريخ حتى عصره ، فابن خلدون اذ يجد الكثيرين ممن ألفوا فى التاريخ واكثروا من رواية الاخبار ، لا يعتمد منهم الا قليلين لا يكادون يتجاوزون عدد الانامل كابن اسحاق والطبرى وابن الكلبي والواقدي والاسدى والمسعودى . ثم ياخذ فى نقد هؤلاء ويعتمد فكرته فى ان الناقد البصير يستخدم قسطا من نفسه فى تزييفهم فيما ينقلون او اعتبارهم» ويعود فيؤكد أن التاريخ ليس رواية اخبار ولكنه دراسة للعمران البشرى، فالاخبار والروايات والآثار ترجع الى طبائع العمران ، وكأنه بذلك يجعل من المؤرخ ملتزما التزاما علميا يعود بكل اخباره ورواياته الى هذا الذى التزم به وهو طبائع العمران البشرى .

والذين خرجوا من هذا الالتزام فى نظره فريقان : فريق كان راوية

ثقة ، على اختلاف مناهج هذا الفريق بين رواية التاريخ العربي العام والتاريخ الخاص . والفريق الثانى لم يكن الا - كما وصفه - مقلدا ، وبليد الطبع والعقل او متبلد ... يدهل عما احالته الايام من الاحوال - واستبدلت به من عوائد الامم والاجيال ، فيجلبون الاخبار عن الدول ، وحكاية الواقع فى العصور الاول صورا قد تجردت عن مرادها ، وصفاحا انتزيعت من اغمادها ، ومعارف تستنكر للمجهل بطارفيها وتلاذها . انما هى حوادث لم تعلم اصولها ، وانواع لم تعتبر اجناسها ولا تحققت فصولها ، يكررون فى موضوعاتهم الاخبار المتداولة باعيانها ، اتباعا لمن عنى من المتقدمين بشأنها ، ويفعلون بمن الاجيال الناشئة فى ديوانها بما اعوز عليهم من ترجمانها تستعجم صحفهم عن بيانها لم يحلل كيف كانوا يفعلون البحث عن اسباب قيام الدول وتباينها او تنافسها واستجد نقدا اقوى ولا اعمق من هذا الذى كتبه ابن خلدون فى تحليل منهج المؤرخين واساليبهم فى رواية الاخبار وتحليلها .

وابن خلدون فى نورته على المؤرخين - وحتى الثقات الذين اعتمدتهم - لا يكتفى بالنظرية يرسلها ارسالا ، وبالفكرة يدع بعد ذلك للمقارء تطبيقها ولكنه ياتى بالامثلة على جهل بعض المؤرخين بطبيعة العمران البشرى ولا يعرضون الخبر ياتيهم عن الرواة عن اصول النقد العقلى والتاريخى ، وانما يؤمنون به وينقلونه نقلا تافها بليدا . وهكذا ياخذ على المسعودى اغلاطا خطيرة وقع فيها لجهله بطبيعة العمران وجغرافية البلد الذى يتحدث عنه ، ثم ياخذ فى تحليل اسباب هذه الاغلاط تحليلا علميا دقيقا .

ومثل ذلك يفعل مع كثير من المؤرخين الثقات ، بل ومع المفسرين الذين لجأوا الى الاسرائيليات يروونها على انها تاريخ يتحدث عنه القرآن . ومع هذا الحماس الذى اظهره ابن خلدون فى نقد منهج المؤرخين السابقين نجده ينتكر لاسس العلم الذى وضعه فى كثير من ردوده على زملائه وخاصة عن الخليفتين الرشيد والمأمون . فقد استحال ان يشربا الخمر لانهما كانا متدينين يجالسان العلماء والوعاظ ودفاعه عن العباسية اخت الرشيد بانها كانت بدوية وقريبة العهد من جدتها عبد الله بن عباس لقد ادخل ابن خلدون هنا العاطفة فى نقد التاريخ فوقع فى نفس المحظور

الذى انتقده على المؤرخين السابقين وخرج عن شرطه فى ان التاريخ ليس استجابة للعاطفة ولكنه استجابة للاحداث كما تقتضيها الطبيعة الانسانية وطبيعة العمران . واحب أن يؤكد انه ليس من موضوع هذا الحديث تأييد الحادثين او معارضتهما ، ولكن الموضوع هو طريقة ابن خلدون فى نقد ما كتبه المؤرخون السابقون .

المهم من كل هذه الامثلة ان ابن خلدون كان ملتزما التزاما علميا فيما كتب من تاريخ ، وما استنتج من علم العمران ، وكان يطبق التزامه على الاحداث التاريخية ، ولذلك لا يمكن أن يعتبر مؤرخا فحسب ، ولكن ما كتب وضع به اصول علم العمران الذى يشمل فلسفة التاريخ وعلم السياسة وعلم الاجتماع .

واذا كان ابن خلدون قد سبق المفكرين والمؤرخين ان العرب والمسلمين فى هذا الاتجاه ، فقد كان رائد التفكير لانسانى جميعه ، بل كان استادا للفلاسفة والمؤرخين الاوربيين الذين بحثوا فى الشؤون الاجتماعية والسياسية والفلسفية والعمرانية . ومنه اقتبسوا اصول علومهم ، وما تزال اشعاراته تنفذ من خلال ستة فروع مضت الى تفكير الفلاسفة والمؤرخين المحدثين ، وما يزال الديوان والمقدمة رسول الفكر العربى الاسلامى الى الفكر الانسانى عربيه وأعجميه ، وما يزال ابن خلدون أستاذا لاكبر فلاسفة العصر، ولناخذ الاعتراف الكامل بهذه الاستاذية من شيخ المؤرخين المعاصرين وفيلسوفهم توينبى حينما يقول فى كتابه «دراسة التاريخ» : «ابن خلدون انتج أعظم كتاب من نوعه ألفه عقل انسانى فى أى زمان أو مكان» .